الثقافة ودورها في بناء الأمة وصُنْع حضارتها

الأستاذ الدكتور/ صابر عبد الدايم يونس
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالزقازيق
جامعة الأزهر
مصر

إن العقل الإنساني غذاؤه التزود بالمعرفة الشمولية المتنوعة، التي تقتحم حواجز التعصب، وتحطم أسوار الطائفية المقيدة بأوهام العداء للآخر، وبرفض كل ما لا يتوافق مع هؤلاء المتعصبين الرافضين لكل فكر جديد، ولكل طرْح ثقافي بنَّاء يُعلي من صرْح الإنسانية، ويشارك في بناء الأمم، وتأسيس الحضارات، في ظل المشتركات الإنسانية التي تؤسس لمبادئ العدْل، والحرية، والسلام، والأمن، والأمان، والمساواة.

أولاً: ماهية الثقافة بين الدلالة اللغوية والأنْساق الفكرية الحضارية:

وحين نتأمل الجذر اللغويّ من مادة الثقافة نجده مضيئًا بكل معاني الجدّ، والحذْق، والجودة والإتقان.. والعلم والمعرفة .

ففي (المعجم الوسيط) تطالعنا هذه الإضاءات لماهية الثقافة ودلالاتها اللغوية المتعددة، فنحن نقول: ثقف الرجل ثقفًا أيْ: صار حاذقًا فطنًا، كما أنها تدل على الجودة في العلم والصناعة فنقول: ثقف العلم والصناعة، أي: حذقهما، وتعطي الثقافة معنى الظفر بالشيء والانتصار والتغلب، فنقول: ثقف الرجل في الحرب: أدركه، وتغلَّب عليه. ومن دلالات الثقافة في تراثنا اللغوي: المجالدة بالسلاح، فنقول: ثاقفه مثاقفة وثقافًا : جالد بالسلاح، ولاعبه إظهارًا

للمهارة والحذْق، ومن دلالات الثقافة التي تطورت بعد ذلك واتسعت آفاقها: التأديب والتعليم والتهذيب، وإقامة المعوج، وتأمل هذه الدلالة: ثقف الشيء ، أي: أقام المعوج منه وسوَّاه، وثقف الإنسان: أدّبه وهذّبه وعلَّمه، وتتفق هذه الدلالة التي تقيد إقامة المعوج مع تقاليد العرب؛ حيث يطلقون كلمة الثقاف على أداة من خشب أو حديد تثقَّف بها الرماح لتستوي وتعتدل. والثقافة كما عرفها مجمع اللغة العربية هي: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها [1].

وقد رصد الدكتور/ طه حسين التطور الدلالي لماهية الثقافة قائلاً ومتفقًا مع الرؤى السابقة: فكان يقال: ثقف الرمح، ويراد قوّمه ونفى عنه الاعوجاج، وجعله أداة صالحة من أدوات الدفاع عن النفس، ثم اتسع معناها شيئًا؛ فأصبح المهارة في صناعة بعينها من الصناعات، ثم تجاوزت هذا المعنى، وانتقلت إلى معنى يتصل بحياة العقل والذوق، فالرجل الذي يحسن العلم بالشعر، فيفرق بين جيده ورديئه، وبين الصحيح الثبت منه والمنحول المزيف، هو: مثقف أو ثقف، وكانت صناعته ثقافة، وهذه الدلالة لها أثرها في ترسيخ الذوق الأدبي والفني في جماهير الأمة، وبناء ملكاتها الجمالية التي تعمق إحساسها بمن حولها .

ثم يقول: وقد اتسع معنى هذه الكلمة- أي: الثقافة- فأصبح المهارة في كل علم من علوم العقل، أو كل فن من فنون الذوق، ولا شك أن هذه الرؤية المتسعة لآفاق الثقافة وتنوع آفاقها الفكرية والحضارية تشارك في بناء نهضة الأمة فكريًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا.

فالرجل المثقف غير معزول عن حركة الأمة، ولا هو غائب عن صنع حاضرها، والتخطيط لمستقبلها، في وعي ومعرفة وخبرات واسعة، والرجل المثقف الآن: ليس هو من أتقن علمًا بعينه أو فنًّا بعينه، وإنما هو أوسع من ذلك وأشمل، هو الرجل الذي ذاق ألوان المعرفة على اختلافها حتى زكا قلبه، وصفا ذَوْقُه، وهُذّب طبعُه، ونفذت بصيرته، وأصبح عقله قادرًا على أن يفهم عنك حين تتحدث إليه في أي لون من ألوان المعرفة، وأصْبح عقله قادرًا أيضًا على أن ينفي عن نفسه الشعور بالغربة حين يسمع حديث العلماء في علومهم، أو حديث أصحاب الفن في فنونهم، أو حديث الساسة والاقتصاديين في سياستهم واقتصادهم.

والرجل المثقف يتسم بسعة الأفق، والفكر المتفتح على الحياة، وقضايا المجتمع، ومشاكل الأمة وهمومها وطموحاتها، وهو الذي لا يَنبو عنه وطن، ولا مكان، ولا بيئة، من أوطان الناس وأماكنهم وبيئاتهم، ومن أوطان الطبيعة وأماكنها وبيئتها، وأوطانها المختلفة؛ هو الرجل الذي يحس من نفسه القدرة على أن يعيش في كل وطن، وفي كل ظرف من الظروف عيشة الفاهم لما يرى، القادر على محاولة فهم ما لم يُفْهم (٢) .

ويتفق مع هذه الرؤية الشمولية لماهية الثقافة، وارتباطها بالأنساق الفكرية الحضارية، التي تشارك في بناء الدولة بناءً عصريًّا مواكبًا لكل المستجدات في العالم المعاصر، الدكتور/ محمد مختار جمعة الذي يطرح أبعاد هذه الرؤية في كتابه الذي جعل عنوانه: (في فضاء الثقافة)، يقول في مقدمة الكتاب: "هذه مجموعة من المقالات العصرية المتنوعة آثرت أن أجعلها تحت عنوان: "في فضاء الثقافة"؛ للتأكيد على كسر التقابل الخاطئ في أذهان بعض الناس بين الدين والثقافة، فالأمر على العكس من هذا التقابل الخاطئ، إذْ ينبغي أن يكون العالم أو الفقيه أو الخطيب على قدر كبير من الثقافة المتنوعة؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، مع ضرورة مراعاة مقتضى الحال والمقام الذي يعد ركنًا أصيلاً من أركان البلاغة والبيان، مما يتطلب أن يكون العالم شديد الاتصال بمحيطه، ومجتمعه، وما يموج به العالم من أحداث وتحديات، مُلمًّا بواقعه، غير منعزل ولا منفصل عنه، مما يوجب علينا جميعًا التكامل لا التناقض ولا التصادم "(٣) .

ثم يوضح د/ محمد مختار جمعة- بدافع من حرصه على نشر الثقافة المعتدلة المتوازنة النابعة من اتساع الرؤية، وسعة الأفق، ورحابة الفكر- الثمار المرَّة للفكر المنغلق، والثقافة المحدودة، فيقول: "وقد عانينا لفترات طويلة في عالمنا العربي والإسلامي من ضيق الأفق الثقافي، أو محدوديته لدى كثيرين، وربما انسداده أو انغلاقه في بعض الأحايين .

وقد صارت أحادية البعد الثقافي ظاهرة تستحق المناقشة، حيث يركز الباحث أو الدارس على علم أو فن بعينه يستغرقه فكريًّا أو أكاديميًّا، ينحصر فيه دون سواه، مما يخرج لنا جيلاً ربما نجد فيه عالمًا غير مثقف، أو غير قادر على العمل الجماعي بروح الفريق، أو التواصل المرن مع مجتمعه؛ لعدم إلمامه بأدوات العصر، واتجاهاته الثقافية والمعرفية، وربما

ينحرف بالمتحدث أو الكاتب إلى معالجة خاطئة لبعض القضايا، أو ينجرف به إلى الصدام مع المتلقي مشاهدًا كان أو سامعًا أو قارئًا"(٤).

إن الثقافة ذات الأبعاد والأنساق الحضارية من أسس الحرية والاستقلال؛ حيث تكافح كل الأمم في سبيل حريتها واستقلالها، ولكن هذا الطموح لا يتحقق إلا بالبناء الثقافي الحضاري، والفكر المتنوع المواكب لكل جديد، فالحضارة تقوم على الثقافة والعلم، وتقوم على القوة التي تنشأ من الثقافة والعلم، وعلى الثروة التي تنتجها الثقافة والعلم، وإن مستقبل الثقافة في مصر لن ندرك أبعاده إلا على ضوء ماضيها البعيد المجيد، وحاضرها القريب، وبمقدار ما نقيم حياتنا المستقبلية على حياتنا الماضية والحاضرة بمقدار ما نجنب أنفسنا كثيرًا من الأخطار التي تنشأ عن الشطط، وسوء التقدير، والاستسلام للأوهام(٥).

ثانيًا: التحدي الثقافي وتأكيد معالم الهوية في مواجهة العولمة:

إن الأمة الإسلامية في بحثها الدائب عن أصالتها الثقافية، وفي محاولاتها الكشف عن معالم هذه الأصالة، وإزالة ما ران عليها من جمود وزيف؛ تحتاج إلى التآزر بين مثقفيها، ومفكريها. وكتابها، وشعرائها، وعلمائها، وكل يشارك بجهده المتميز وثقافته الموسوعية في استعادة الهوية، وبعث الحضارة العربية والإسلامية التي امتدت جذورها في الفكر الإنساني فأينع وأتى أكله طيبًا .

وفي عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في العصر العباسي نرى التلاحم الثقافي بين آداب ومعارف الأمم التي فتحها الإسلام، ونرى لكل أدب مؤيدين، ولكل ثقافي أنصارًا، فوزراء العباسيين ومن نحا نحوهم يؤيدون الثقافة الفارسية، ومدرسة جند نيسابور وما تفرع منها تؤيد الثقافة اليونانية، والأدباء وعلماء اللغة والنحو يؤيدون الثقافة الهندية، وقد نشر هؤلاء جميعًا في الجو الفكري الإسلامي هذه الثقافات المختلفة المشارب، المتعددة المنازع، يتنفس كل منها حسب ميوله واستعداده، ولأن الثقافة العربية والإسلامية كانت هي الأقوى والأكثر تأثيرًا، وكان لها الدور الأكبر في إرساء أسس الحضارة الحديثة؛ نجد أن الثقافات الأخرى والآداب التي ازدهرت في ظلها ذابت في محيط الثقافة العربية والإسلامية، وتفوقت الشخصية العلمية

الثقافية في ظل الرؤية الإسلامية الأصيلة في جميع العلوم والمعارف، ولكن بعد أن مرت الأمة بعصور ضعف متوالية بقي هذا المجد تاريخًا مجيدًا يروى للأجيال، وما زلنا نفتخر به، ولكن في قرون متعددة - من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين.. زحفت جيوش كثيرة من الشرق والغرب لتوقف مدَّ الحضارة العربية والإسلامية وتطور الغزو العسكري إلى ما يسمى بالغزو الثقافي الذي يسعى إلى تفتيت الشعوب، وتفكيك الهويَّات، حتى تظل الأمة تابعة لكل ما يسنه أعداؤها من قوانين وتشريعات .

ولكن الأمة لم تستسلم لهذا الطوفان القادم، وكان لا بد من إعلان التحدي الثقافي الذي يقاوم هذه الموجات الوافدة- وخاصة في مجال العلوم الدينية واللغوية والإنسانية؛ لأنها هي التي تشكل هوية الأمة، وتحدد قسماتها- وتمنحها طبيعة الاستقلال والتميز والتفوق- مع مواكبة ما يستجد في ميادين العلوم التطبيقية العملية القائمة على الاكتشافات والنظريات العلمية، وهذا التحدي الثقافي الذي يسعى لاستعادة الهوية لا يَعْني إعلان الصدام والعداء مع الآخر، ولكن يسعى إلى التكافؤ، والتفوق، والمشاركة في صنع واقع حضاري غير متخلف عن ركب التقدم العالمي، وهذا التحدي الثقافي الإيجابي في صورته الحضارية، يسعى من خلال الوعي الثقافي، والديني، والفكري والعلمي إلى محو الصورة السلبية التي ترسخت في أذهان الغرب عن الإسلام والمسلمين من خلال نظرتهم الضيقة للإسلام، والحكم عليه من خلال الجماعات الإسلامية المتطرفة المتشددة التي شوهت الوجه الحضاري للإسلام، وجعلت كثيرًا من الغربيين يربطون الإسلام بالتخلف الحضاري، أو معاداة الديمقراطية، وعدم الاعتراف بالتعددية الدينية والحضارية. ومن الصور المغلوطة عن الإسلام وثقافته وتشريعاته: أن كثيرًا من المفكرين والساسة والمتعصبين والأصوليين من الغرب وبعض بلاد الشرق يرون في الإسلام - وبئس ما يرون- تهديدًا للغرب وللحضارة الغربية، وتهديدًا للمجتمع الديمقراطي، وتمخَّض عن هذا التوجه وذلك التصور عدة نظريات خطيرة ومهددة لعلاقة الغرب بالإسلام، منها: نظرية العدو الجديد البديل للشيوعية، ومنها: نظرية صراع الحضارات[٦].

ومن أهم التحديات الثقافية العالمية المطروحة حاليًا -كما يقول د/ محمد خليفة حسن، والتي تتطلب موقفًا إسلاميًّا موحدًا، ووضع رؤية ثقافية إسلامية تحقق إسهامًا إسلاميًّا في الثقافة العالمية، ما يلي :

١- تحديات العولمة، وبخاصة في بعدها الثقافي؛ بما تطرحه من ثقافة غربية ساعية إلى السيادة على الثقافات الأخرى، والقضاء على التعددية الثقافية، وخطورة ذلك على الثقافة الإسلامية.

٢- مشروع الفرانكفونية، وهم المتحدثون بالفرنسية على مستوى العالم .

٣- مشروع الشرق أوسطية .

٤- مشروع منتدى حوض البحر الأبيض المتوسط ببعده الثقافي .

٥- مشروع ثقافة السلام وارتباطه بثقافة القوة التي يجب أن نسعى إليها .

٦- مشروع الحوار بين الأديان، وهو مشروع إنساني حضاري يعمل على تماسك الأمة واستقرارها .

٧- مشروع الحوار بين الحضارات، وهو مشروع عالمي فيه أمان للبشرية جمعاء .

ولا بد من وضع آلية يتم من خلالها دراسة هذه المشروعات دراسة إسلامية- كما يقول د/ محمد خليفة صاحب كتاب (الإسلام والحوار مع الحضارات الأخرى) - وهذه الدراسة لا بد أن تكون قائمة على أسس وخطوات علمية واضحة، ومنها :

١- التحليل العلمي الدقيق لأبعاد هذه المشروعات، مع التركيز على البعد الثقافي، وتحديد خطورة بعض هذه المشروعات على الثقافة الإسلامية التي تشكل عقلية الأمة وهويتها.

٢- إدراك البعد العالمي والإسلامي الموضوعي والبنَّاء للمحتوى الثقافي لهذه المشروعات .

٣- تحديد الموقف الإسلامي الموحد من هذه المشروعات في بعدها الثقافي .

٤- تكوين رؤية إسلامية ثقافية تشارك في الحد من التأثيرات السلبية الثقافية لهذه المشروعات، ومواجهة هذه السلبيات بتقديم البديل الذي يتسق مع هويتنا وبيئتنا المصرية والعربية .

٥- الإفادة من الجوانب الإيجابية في هذه المشروعات الثقافية، وتوظيف هذه الجوانب الإيجابية إسلاميًّا.

٦- تحديد الإسهام الإسلامي الفعال في هذه المشروعات الثقافية، والتحول من مرحلة الدفاع ورد الفعل إلى مرحلة المساهمة الفاعلة في هذه المشروعات، وتطويعها؛ لتخفيف حدة آثارها السلبية، وخلق دور ثقافي إسلامي عالمي.. بما يتناسب مع ظروف وقضايا كل دولة في العالم الإسلامي .

وهذه التحديات الثقافية يتصدى لها المخلصون من أبناء هذه الأمة - بكل ما وهبوا من ملكات عقلية وبيانية، وجهود فردية ومؤسَّساتية- وفي مقدمة المؤسسات التي تتصدى لتيار العولمة وتسعى لترسيخ المنهج الإسلامي الوسطي المعتدل: وزارة الأوقاف المصرية، واتحاد وزراء الأوقاف العرب، والأزهر الشريف.

وجهود وزارة الأوقاف لا تنكر، وفي مقدمة هذه الجهود العلمية الثقافية ذات النهج التخطيطي المنظم المنضبط، ما يلي:

- نشاط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذي يحمل على كاهله تصحيح المفاهيم المغلوطة، ونشر الأفكار المتزنة المعتدلة، من خلال إصدراته المتنوعة من كتب ودراسات وموسوعات وتحقيقات علمية، ومن خلال المؤتمرات العالمية للمجلس التي يشارك فيها نخبة من علماء مصر، والدول العربية ودول العالم الإسلامي، وفي كل عام تصدر توصيات يسعى وزير الأوقاف وكل مسئولي الوزارة وعلمائها وأئمتها الكبار إلى تنفيذ هذه التوصيات ، وتحويلها إلى برامج عمل فاعلة تشارك في نهضة الأمة، وتشارك في استعادة الهوية التي تعرضت منذ عدة قرون للتشويه وطمس المعالم والقسمات.

- إنشاء أكاديمية الأوقاف المصرية لتدريب النابهين من الأئمة والدعاة الذين يؤثرون

في ثقافة الأمة، ويسعون إلى تجديد الخطاب الديني في ضوء ثقافتهم المتنوعة، ووعيهم الشامل بحركة المجتمع، وتقاليد البيئة، والتسلح بثقافة العصر، وهذا التنوع الثقافي هو نفسه إيقاع الحضارة الكونية الإسلامية، فالحضارة في ظل هذا السلوك - كما يقول بعض المفكرين المسلمين- نسق من الحياة يتسربل بعدة مظاهر مادية، وحضارية، وأخلاقية، يظاهر بعضها بعضًا؛ فتكوِّن في مجموعها نسقًا مطردًا من سلوك الإنسان تجاه نفسه، وتجاه الطبيعة والكون، والحضارة انطلاقًا من هذه الرؤية كيان متطابق مع ذاته بأجزائه، ناظم لحياة الناس، يصوغ أعمالهم وسلوكهم وتطلعاتهم في قوالب متجانسة(٧).

- ويرى صاحب كتاب فلسفة الحضارة أن هدف الحضارة يجب أن يكون إيجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة -قدر الإمكان- بحيث يمكن أن يتحقق كمال الأفراد روحيًّا وأخلاقيًّا، لأن هذا الكمال هو الغاية القصوى من الحضارة، وهذا هو لب الثقافة الإسلامية التي تسعى إلى الرقي بالإنسان عقلاً وجسدًا وروحًا (٨).

ثالثًا: الثقافة العلمية التجريبية وأثرها في ازدهار الحضارتين الإسلامية والعلمية:

إن الإسلام دين العلم والحضارة، ومعجزة الإسلام الخالدة هي القرآن الكريم، وأولى آياته التي تنزلت على رسول الله ﷺ هي الأمر بالقراءة والتفقه في كل ميادين المعرفة، قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (٩)، ويؤكد القرآن الكريم- متحديًا كل طاقات البشر في كل العصور والبيئات- على أن الإنسان على الرغم من تربعه على ذروة التقدم العلمي ما زالت أمامه آفاق كثيرة متسعة لم يتعرف عليها، ولم يصل إليها، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (١٠)، وحث القرآن الكريم البشر أجمعين على التفكير في خلق السماوات والأرض، والكون والكائنات، وينعي على المتشككين في قدرة الله ﷻ عدم التدبر والتفكر والتذكر، فيقول سبحانه في سورة الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ (١١).

وكان لهذا التوسع الثقافي والعلمي لدى الأمة الإسلامية- استجابة لأمر الخالق سبحانه

وتعالى- أثر كبير في بناء الدولة الإسلامية، وتأسيس كل وطن على دعائم راسخة من العلم، والثقافة، واللغة، والدين، وفنون العمارة الإسلامية .

وتنافس الخلفاء والحكام والولاة في رعاية العلم والعلماء، وقبل إنشاء المدارس والمؤسسات الثقافية والدينية والجامعات كانت قصور الخلفاء ومنازل العلماء ودور الكتب، والمساجد بمثابة جامعات يؤمها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض، وقامت المساجد بدور رائد في تثقيف جماهير الأمة، وإرساء دعائم النهضة العلمية والدينية في جميع أنحاء العالم الإسلامي قديمًا وحديثًا .

ومن هذه المنارات المشعة ببريق المعرفة، والوعي بقضايا الأمة وهمومها وطموحها، والتي قادت العالم إلى آفاق التقدم والعلم والحرية والكرامة: جامع المنصور في بغداد، والجامع الأموي في دمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين في فاس بالمغرب، وجامع قرطبة بالأندلس، والجامع الكبير بصنعاء.

وفي ظل هذا التفاعل الثقافي والعلمي تفوق المسلمون في العلوم الكونية، والإنسانية، والتجريبية، واللغوية، والشرعية، والطبية، والهندسية، وانتشرت هذه العلوم وتأثيراتها الحضارية في العالم كله شرقًا وغربًا.

وقامت النهضة الأوروبية على دعائم الحضارة الإسلامية الزاهرة؛ إثر الاتصالات القوية بين الغرب والشرق عن طريق: الرحلات، والترجمة، والاحتكاكات الثقافية في الحروب الصليبية، والتواصل الثقافي بين الغرب والشرق في بلاد الأندلس .

وأهم الميادين التي تأثر بها الأوروبيون والعالم الغربي بصفة عامة، والتي شاركت في نهضة أوروبا الحديثة فيما بعد العصور الوسطى، هي (الأدب – الفلسفة – العلوم الطبيعية – الطب – الجغرافيا – المعارف الملاحية– التاريخ والعمارة – التحف الفنية – الموسيقى).

وهذا التأثر الحضاري المعروف جاء نتيجة الاتصال بين نتاج الحضارة العربية الإسلامية والعالم الأوروبي في أوائل عصر النهضة، في الحقبة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي.

والشواهد والأدلة ما زالت قائمة وناطقة بتأثر حركة الفكر والثقافة في أوروبا– في هذه العصور – بمنجزات التراث الحضاري والثقافي للفكر الإسلامي[١٢]، ويؤكد الفيلسوف العربي المصري د/ عبد الرحمن بدوي –في كتابه: (دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي)، أن الفلاسفة العرب المسلمين أثروا في أوروبا، حيث ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة الناشئة، فترجم يوحنا الأسباني منطق ابن سينا، وترجم جوند يسالفي – شيخ المترجمين آنذاك – بمساعدة يوحنا الأسباني قسم الطبيعيات من كتاب (الشفاء)، وقسم النفس والإلهيات من (الشفاء) لابن سينا أيضًا، كما ترجموا (مقاصد الفلاسفة) للغزالي، وكذا جملة رسائل للكندي وللفارابي[١٣].

ومما يؤكد عمق تأثير الثقافة الإسلامية والعربية في الارتقاء بالعقل الإنساني، والتقدم العلمي، والنهضة العلمية في أوروبا: أن اللغة العربية كانت لغة العلم التي يكتب بها العلماء ليقرأها الناس في أي صقع من أصقاع العالم والوطن الإسلامي الكبير، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية، ونقلوا علومًا، وابتكروا أخرى، وأضافوا كثيرًا من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم .

ويثبت الباحثون والعلماء – وفي مقدمتهم العلامة د/ أحمد فؤاد في كتابه (عندما تكلم العلم بالعربية)، وكذلك " روم لاندو" في كتابه: " الإسلام والعرب"، ترجمة : منير البعلبكي، وكذلك الأستاذ العقاد في كتابه: "الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين"، وغيرهم من العلماء العرب والمستشرقين– يُثْبِتُ هؤلاء حقائق جازمة تؤكد أسبقية العلماء المسلمين إلى ابتكار كثير من النظريات العلمية، وأنهم ألفوا كتبًا كثيرة في هذه الميادين التي شاركت في نهضة الأمة العربية والإسلامية، وقادت العالم إلى اكتشاف المزيد من نظريات العلم الحديث.

فقد تحدث العلماء العرب والمسلمون في قانون الجاذبية، والربط بين السرعة والثقل والمسافة، وقد نسب كل ذلك إلى " نيوتن" دون سواه[١٤] ، وقد ثبت أن " الخازن" وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين.

وتحدث العلماء المسلمون في أثر البيئة على الأحياء قبل " لامارك" كما نسب ذلك إلى

ابن خلدون، فيلسوف العمران والاجتماع في الإسلام، وشرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" ببضعة قرون، وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره، والذي كتب فيه " ابن الهيثم" قبل علماء أوروبا بزمن بعيد، ولم تعجز اللغة العربية عن البيان في هذه المجالات العلمية الدقيقة.

وكذلك قاس العلماء المسلمون محيط الأرض، وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات قبل" جاليليو" وغيره في عصر النهضة الأوروبية، وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير، ومن العلماء في ميدان المعارف الفلكية: البتاني، والفرغاني، والكندي، والخوارزمي، والصوفي، وغيرهم، وابتدع الخوارزمي استعمال الأرقام في الحساب بدلاً من حساب الجمل الذي كان سائدًا، وأنشأ "الخوارزمي" علم الحساب وعلم الجبر، وعلمهما للناس أجمعين.

وكذلك ألف علماء العرب والإسلام في النبات، والحيوان، والمعادن، والفلك، والرياضيات، والكيمياء، والصيدلة، وحساب المثلثات، والهندسة، والطب، والموسيقى، ولهم إنجازات رائدة في هذه المجالات، وكل هذا باللغة العربية الفصحى، وأصالة علم الفلك عند العرب- كما يقول د/ عبد الرحمن بدوي- نشأت من كونهم طبقوا حساب المثلثات على الأرصاد الفلكية، واخترعوا وصنعوا آلات جديدة للرصد، مما أدى بهم إلى كثير من الاكتشافات، وإلى تعديل شامل لفلك بطليموس.

فالبتاني اكتشف تغير أوج الشمس وحسب السنة بمقدار: " ٣٦٥ يومًا، وخمس ساعات، و ٤٦دقيقة، و٢٤ ثانية، والفلكيون إلى اليوم يحسبونها بمقدار: ٣٦٥ يوما وخمس ساعات، و ٤٨ دقيقة، و ٤٧ ثانية.

وقد اعترف عدد من مؤرخي العلم والعلوم الطبيعية بفضل العرب والمسلمين على العلم والإنسانية، حتى قال أحد علماء أوروبا: لولا أعمال العلماء العرب والمسلمين لاضطرّ علماء النهضة أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء، ولتأخر سير المدنية عدة قرون، وقال آخر: إن كثيرًا من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا، فإذا العرب سبقونا إليها.

ومن الشواهد العلمية على هذا السبق العلمي في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية: أن

"ابن سينا" الفيلسوف والشاعر والطبيب له إنجازات في علمي الطبيعة والميكانيكا، فقد عالج موضوع سرعة الصوت وسرعه الضوء في كتابه (الشفاء) الذي ألفه باللغة العربية لغة القرآن الكريم، وابن الهيثم المتوفى سنة ١٠٢٩م يعد في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور والأحقاب، وهو من أئمة علماء الضوء .

و" البيروني" اشتهر في الطبيعة، ولا سيما : الميكانيكا والهيدروستاتيكا، وله شرح في ضغط السوائل وتوازنها، و"الخازن" في كتابه: (ميزان الحكمة)، كان له دور رائد في تاريخ الطبيعة، وتقدم الفكر العلمي عند العرب، وفي بلاد العالم الإسلامي والعالم كله، وقد سبق " الخازن" علماء أوروبا في الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه، وأشار إلى أن للهواء وزنًا وقوة رافعة كالسوائل، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي .

ويعد " جابر بن حيان" شيخ الكيميائيين العرب المتوفى سنة ٦٧٦م، وقد أدخل في الصناعة شيئًا جديدًا اسمه " علم الميزان" وعرف كثيرًا من العمليات الكيميائية كالتبخير، والتقطير، والترشيح، والتكليس، والإذابة، والتبلور، والتصعيد، وفي ظل العطاء العلمي لهذا العالم الجليل " جابر بن حيان " قام العرب باكتشافات هائلة، من بينها: " الماء الملكي، وحمض الكبريتيك، وحمض الأزوتيك، ونترات الفضة، وكانت مؤلفات ابن حيان المراجع المعتمدة في علم الكيمياء عدة قرون بعد ترجمتها إلى اللاتينية، وقد درس مؤلفاته مشاهير علماء الغرب من أمثال: كوب، وكراوس، وسارتون.

رابعًا: معالم تكامل البنيان الثقافي في ظل التكامل المعرفي والمنهجي:

إن الحقائق السابقة التي تؤكد تفوق الحضارة العربية والإسلامية في عصور ازدهارها لا تنفصل عن الجذور المعرفية والمنهجية المكونة لأمتنا في مسيرتها الماجدة عبر تاريخها الطويل، وقبل أن يخبو وهج حضارتها، وقبل أن تتكالب عليها الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها؛ وذلك لأن البنيان الثقافي لا بد أن يكون متماسكًا ومتكاملاً، فبعض هؤلاء العلماء الذين أثروا الحضارة الإنسانية بما قدموه من إنجازات وابتكارات كانت لهم إنجازات في المجالات اللغوية والدينية والأدبية، وقد شاركهم مبدعون كبار، ونقاد راسخون، وعلماء

جادون في العلوم الإنسانية والأدبية، وعلوم التصوف والأخلاق، ومنهم الشعراء الكبار وفي مقدمتهم: أبو تمام، والمتنبي، وأبو العلاء المعري، وابن الفارض، وابن عربي، وغيرهم من كبار أدباء العربية.

ومن العلماء الذين أثروا الميدان الجمالي البياني، واللغوي، والأدبي، والبلاغي: الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني، وابن سلام، وابن رشيق، وغيرهم من أعلام الحضارة العربية والإسلامية.

ولا يمكن إغفال دور الفقهاء وأثرهم في تنظيم حياة الأمة في ضوء الأحكام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة، والإجماع والقياس، ومسيرة الأمة الإسلامية حافلة بعطاءات المجتهدين من أولي الألباب .

وليس بالمستغرب أن يكون الأئمة الأربعة فى العصر العباسي الأول، وهو عصر المجد الإسلامي وظهور القوة الإسلامية العظمى، وهذا العصر كذلك كان عصر تدوين الحديث والتصنيف في التفسير، وعصر ظهور أئمة اللغة، ومنهم: الخليل بن أحمد، والكسائي، وأبو عمرو بن العلاء، وهو عصر تأسيس المدارس النحوية، ومنها: المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية، والمدرسة البغدادية، كما كان لعلماء الكلام، وعلماء أهل السنة، وعلماء المعتزلة، وعلماء التصوف، الأثر القوي المؤسسي في إرساء دعائم الحضارة العربية الإسلامية.

ولمصر دورها الرائد في الثقافة العربية الإسلامية – قديمًا وحديثًا – فالأزهر الشريف منذ ألف عام ودوره الحضاري متواصل في نشر الثقافة الإسلامية، والمنهج الوسطي في العالم كله، وحتى قبل إنشاء الأزهر كان لمصر دَوْر الريادة الثقافية والعلمية، وعن هذا الدور المبكر في الريادة الحضارية، وفي ميدان علوم القرآن، وغيره من الميادين يقول د/ محمود علي مكى: " نتوقف هنا لنسجل ظاهرة تتكرر في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، وهي دور مصر بصفتها حلقة تربط بين المشرق والمغرب، وملتقى تصب فيه الروافد القادمة من مختلف الحواضر العلمية في المشرق؛ لكي تلتقي مع طلاب العلم الوافدين من المغرب، ولا سيما من أفريقيا والأندلس.

وكان هذا الدور الذي اضطلعت به مصر في الثقافة الفقهية، منذ أن انتقلت رياسة المذهب المالكي إليها من الحجاز بعد وفاة الإمام مالك بن أنس، فأصبح عبد الرحمن بن القاسم هو شيخ المالكية، الذي أخذ عنه متفقهة الأندلس وأفريقية، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثي القرطبي، وعبد السلام بن سعيد بن سحنون القيرواني.

وتتكرر هذه الظاهرة فيما يتعلق بعلم القراءات خلال القرن الرابع الهجري، إذْ يصبح أعلام المدرسة المصرية سواء منهم الشيوخ المصريون أنفسهم، أو الذين استقروا في مصر من الوافدين عليها؛ هُمْ مرجع طالبي هذا العالم من الأندلسيين والمغاربة" [١٥].

خامسًا : التّماس بين الثقافات والحفاظ على الهوية:

إن فضاءات الثقافة في ظل تعاليم الإسلام تتسع وتتمدد لتشمل الإنسانية كلها، وإن التحدي الثقافي الذي تواجهه أمتنا في مصر والعالم العربي، والدول الإسلامية كلها يتمثل في: استيعاب المفارقة التي تبدو مجسدة للتناقض والصراع، بين ثقافة الغرب المائجة بكل مظاهر التقدم التكنولوجي، المسيطرة على كل وسائل الإعلام، والتي أخذت زمام المبادرة في الابتكار والاختراع واحتكار الاكتشافات العلمية، والصناعات المستحدثة العالمية المؤثرة في كل شئون الحياة، وبين واقعنا، والمفارقة التي وقعنا بين فكي رحاها هي: هل نستسلم لهذا الانتصار المادي الجارف ونترك ثوابتنا، ونبكي ضياع أمجادنا ولات ساعة مندم، أم نواجه هذا الزحف الصناعي، والاجتياح العلمي بالصحوة العلمية، والنظر في الآفاق وفي الأنفس، وفي استغلال خيرات أرْضنا، ومواكبة أحدث النظريات العلمية، وتطوير معاهدنا وجامعاتنا العلمية، وإعادة البحث العلمي إلى الصف الأول من اهتمامنا، في إطار من التخطيط الإستراتيجي المنضبط، والتكامل المعرفي المنهجي، المؤسس على قاعدة علمية ترصد كل المستجدات في الساحة العالمية شرقًا وغربًا؟ إن المواجهة المتسلحة بالعلم والوعي والثقافة والتعاون البناء مع كل فكر جديد لا يسلبنا هويتنا، ولا يلغي شخصيتنا، ولا ينسف تاريخنا، ولا يمزق أمتنا، إن هذا التعاون الحضاري هو الطريق المستقيم الذي يقودنا إلى حضارتنا الغاربة لتعود مشرقة من جديد.

إن الأفق الإنساني للثقافة هو الغاية التي يسعى إليها المفكرون والأئمة والدعاة؛ لأن الإسلام تكفل بحماية الحقوق الأساسية للإنسان، وشرع الوسائل العملية والفكرية والدعوية والعلمية التي تضمن لكل إنسان حماية النفس والعقل والدين والمال والأسرة، والوطن، ويتفرع عن هذه الأسس بقية حقوق الإنسان .

وإن المسلمين في حاجة أكيدة وملحة إلى تنشيط ذاكرتهم، والالتفاف إلى القيم التي تزخر بها حضارتهم، والعودة إلى تطبيقها في دنيا الواقع؛ من أجل تطوير حياتهم، وإصلاح مجتمعاتهم، وتغيير الأوضاع الفكرية والثقافية التي لم تعد تتلاءم مع ظروف العصر ومستجدات الحياة.

والإسلام إذ يشجع ذلك كله فإنه يبين في الوقت نفسه أن قانون التغيير يقضي بأن أي تغيير أو تطوير لا بد أن ينبع من الداخل لا من الخارج، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [١٦].

تلك هي ثقافة التغيير التي بينها القرآن الكريم للمسلمين، والتي لا تمس الثوابت الإسلامية في الدين ولا الخصائص الحضارية للأمة الإسلامية.

ومما يؤكد دور التبادل والتعاون الثقافي بين الأمم والشعوب[١٧].

١- ضرورة تميز الحضارة الإسلامية بانفتاحها على غيرها من الحضارات أخذًا وعطاء .

٢- ضرورة تمكين العلماء ومراكز البحوث العلمية بكل الوسائل والسبل التي تتيح لهم القيام ببحوث علمية تتفق مع التطور العالمي؛ للحاق بركب التطور العلمي.

٣- ضرورة التخلي عن كافة الأفكار والدعاوى التي تقوم على الصراع بين الحضارات، واستعلاء بعضها على البعض الآخر؛ تجنبًا لما قد تؤدي إليه هذه الأفكار من الكراهية والحروب والتطرف بين دول العالم .

٤- ضرورة تجديد الأحكام الفقهية الاجتهادية؛ لمواجهة التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية في العالم المعاصر.

الهوامش:

---

(١) انظر: المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية، ج١ ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

(٢) انظر: مقال د/ طه حسين، منشورًا بمجلة "المجلة"، يوليو ١٩٥٧م، والمقال منشور بكتاب: " فن المقالة " ، د/صابر عبد الدايم، وآخرون.

(٣) انظر: في فضاء الثقافة، د/ محمد مختار جمعة، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٢، ٢٠١١م، ص ٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٥) انظر: مستقبل الثقافة في مصر، د/طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م ، ١/١١٣.

(٦) انظر: الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة ، د/ محمد خليفة حسن، إصدار رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٧م ،ص٤٨.

(٧) انظر: السابق نفسه، ص ٥٠ .

(٨) انظر : الحضارة الإسلامية تجربة التاريخ وآفاق المستقبل، د/ عبد الحليم عويس، ص،١٣٢ .

(٩) العلق: ١ – ٥.

(١٠) الإسراء: ٨٥ .

(١١) الغاشية: ١٧– ٢٠ .

(١٢) انظر هذه الحقائق بالتفصيل في كتاب : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١، ١٩٨٧م، وقد صدر الكتاب تحت إشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو.

(١٣) انظر: دور العرب في تكون الفكر الأوروبي ، د/ عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٣٨ –٤٦.

(١٤) انظر : دور العرب في تكون الفكر الأوروبي، ص٤٩ .

(١٥) انظر : علوم القرآن في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري ، د/ محمود علي مكي ، عدد ١٥٤، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٩٨ .

(١٦) الرعد:١١.

(١٧) انظر: إنسانية الحضارة الإسلامية، العدد ١٢٣ ، ٢٠٠٥م، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٨٤ .